Modernism between Ideology and Knowledge

Dr. Burhan Almhlobi*
Dr. Monzer Shbaneh**
Roua Mahmoud ***

(Received 8 / 4 / 2019. Accepted 28 / 7 / 2019)

□ ABSTRACT □

Modernity is a way of life and a pattern of new thinking that is achieved by overcoming the past, not by breaking with it, but by relying on it in its embers free from ashes. Modernity is also the establishment of a present that is the title of a future in which rationality prevails in thinking, leadership in governance and democracy in politics and society. Modernity is a case of a time evolution that allows the renewed status quo to express, in one form or another, the spirit of the age.

Keywords: modernity, past, rationalism, democracy, politics, society

***Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Latakia , Syrian.**
****Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Latakia , Syrian.**
***** Postgraduate Student (Master)- Dept. of Philosophy - Faculty of Arts Humanities - Tishreen University – Lattakia - Syria.**

الحداثة بين الايديولوجيا والمعرفة

الدكتور برهان مهلوبي*

الدكتور منذر شباني**

رؤى حكمات محمود***

(تاريخ الإيداع 8 / 4 / 2019. قبل للنشر في 28 / 7 / 2019)

□ ملخّص □

الحداثة أسلوب حياة ونمط تفكير جديد يتم من خلال تجاوز الماضي ليس عبر القطيعة معه بل بالاستناد اليه في جمره دون رماده ، والتأسيس لحاضر يكون عنوانا لمستقبل تسود فيه العقلانية في التفكير والرشادة في الحكم والديمقراطية في السياسة والمجتمع، فالحداثة حالة ناتجة عن تطور زمني يسمح للوضع القائم المتجدد أن يعبر بشكل أو بآخر عن روح العصر ،

الكلمات المفتاحية : الحداثة _ الماضي _العقلانية _التفكير _ الديمقراطية _السياسة _المجتمع .

* أستاذ، قسم الفلسفة ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة ، سورية .

**أستاذ، قسم الفلسفة ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة ، سورية .

*** طالبة دراسات عليا (ماجستير) ، قسم الفلسفة ، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية، سوريا.

مقدمة :

إن مصطلح الحداثة يعني بالضرورة ملاحظة التنوع والتعدد في طروح موضوعية الشيء، بغرض دفع الوعي لتقبل هذا الشيء، بوصفه مشروعاً يجب تحقيقه للاستمرار في البحث ، لذلك تطرح فكرة البديل ومبرره ضمن منظور الروابط المستجابة للفهم، والحداثة بهذا الطرح قدمت اسهاماتها وخبراتها الى كل المعارف ، و قامت بإخضاع الحكم إلى الرصد والتجريب لتشكيل الرؤية الجديدة للعالم.

ولما كان الرأي اللامشروط هو طريق البحث في الحداثة، بوصفه معطى كشفياً، وليس نتيجة حتمية، اعتمدت الحداثة إجراءاتها الافتراضية، لتحقق الكيفية الممكنة للتوقعات المنتظرة لنسيج العالم.

حيث غدت الحداثة عبر كافة مراحل تطورها متحولة بحسب واقع المتغيرات المستجدة، و تستوي لذلك في مستويات مختلفة، لتشمل أو تحاول أن تشمل، كل مجالات الحياة بما فيها الحياة اليومية، و طرائق التفكير.

إذاً الحداثة: ليست حافظة وثائق تفيد محك التجربة الماضية أو تفسرها، بقدر ما هي انكفاء على قول الشيء في تماثله باختراق المعهود، ذلك بأن إعادة القراءة في ضوء العصر تختلف جذرياً عن قراءة العصر في ضوء الفقه المعطل والجامد.

لتغدو الحداثة إجراء يحاول اختراق منظور حدود الأحكام الجاهزة، المصنفة، مصرفا عنايته إلى آفاق واسعة من المعرفة، وإرادة القوة الفاعلة في خلق المبادرة. حيث إن الحداثة تحاول أن تظل أمينة لما كان يتطلع إليه التراث، بعيداً عن النظرة الجامدة التي تصور الأشياء كما هي، لا كما ينبغي أن تكون. فالحداثة لا تلغي الماضي بقدر ما تحاول أن تحتمل هذا الماضي... فتستوعبه، بعد أن تقوضه، ثم تبني عليه فكراً مشبعاً ببعض عناصر الفكر القديم، وببعض عناصر الفكر الجديد ، لتستشرق منها ما سيكون...

ان الحداثة ضرورة حضارية ، لم تظهر من عدم. بل كان لها إرهاصات مهدت لهذا الظهور، وتتمثل هذه الارهاصات أساساً في "الصراع الدائري" بين القديم والمحدث، للتحرر من القيم القديمة، والاجتهاد في ابتكار قيم جديدة وبالرغم من كل ذلك فلا شيء يقيني وثابت في الحداثة.

فاذا كانت الحداثة في المعاجم العربية تعني "المستحدث" الذي هو نقيض "القديم" فإن المعاجم الفلسفية تتدرج بالمصطلح إلى ما يوافق روح العصر في طريق آرائه المستجدة، حتى ولو كانت المواصفات قديمة. ومعنى هذا أن الحديث ليس خيراً كله، و القديم ليس شراً كله، وخير وسيلة للجمع بين محاسن القديم والحديث أن يتصف أصحاب الحديث بالأصالة، والعراقة، والقوة، والابتكار وأن يتخلى أصحاب القديم عن كل ما لا يوافق روح العصر من التقاليد البالية والأساليب الجامدة للتراث، فالحداثة هي "كل مبتكر من نماذج شائعة مألوفة أو متوارثة، وهي لا تعني الانسلاخ عن أغلال الماضي، أو التعلق بالقديم، حتى وإن التعمق في هذا الشأن، لا يحتوي في داخل ذاته إلا على استئصال في حق تطوير مفهوم الحداثة لأن "إشكالية الحداثة هي موقف يتطلب وعياً تستدعي شعوراً بحساسية روح العصر، كونها تشكل حلقة ضرورية من مجموع حلقات التأثير المندمجة مع تفاعل المستجدات العصرية.

ولما كانت الحداثة تقع في حدود من الالتباس، والغموض، لا من حيث أهمية التسمية أو طبيعة المصطلح ومغزاه وحسب، بل من حيث كونها ما تزال في صدام وتعارض مع كثير من المصطلحات المتداولة كالتحديث، وما قبل الحديث، والحداثة البعدية، وغيرها، وتغير المصطلح من مرحلة إلى أخرى يولد استمرارية معطيات الحداثة لأنها تتوجه نحو مطلق لا يتضمن غاية أو نهاية واضحة وفي مقابل تدفقها واستمراريتها، تبدو المعاصرة محايدة، وحيث لا يعني

الزمن شيئاً بالنسبة للحداثة بوصفها انبثاقاً جوهرياً وشاملاً. كان لا بد من دراسة مفهوم الحداثة الذي يثير الكثير من الأسئلة والذي شكل خاصة في القرن العشرين المادة الرئيسية في دوائر الفعل الثقافي والسياسي في أكثر من مكان. وعلى الرغم من قدم المفهوم إلا أن اتساع ظاهر الحداثة قد ساهم إلى حد كبير في انتشاره كبوابة لا بد من فتحها في عالم المستقبل من تلك الأسئلة ما المقصود بالحداثة، وما هي سماتها؟ ما موقفها من التقنيات والثوابت التي تعارفت عليها البشرية من أقدم العصور وتصالحت معها؟ هل هي تجاوز قطيعة ما؟ أم مجرد تجاوز دون قطيعة؟

ما علاقتة الحداثة بالأيديولوجيا؟ ولماذا لم و لن يأخذ العرب بأساليب الحداثة في أنساقها المختلفة وقد عرفوها قبل غيرهم واختبروها عبر الإسلام الذي يعتبره الكثيرون على أنه الحداثة الأولى في تاريخ العرب؟ وبين كل إعادة نظر وأخرى، يندفع أكثر من اتجاه أو نزعة أو تيار، ليعلن بألفاظ طيبة وبسيطة أنه اكتشف بديلاً ما، ولا بديل...

فهل يمكن اعتبار ذلك ثرثرة علمية أم غير علمية؟ تنعشها الآن مفهومات الحداثة والعقلانية والعقلنة والعلمانية والعلمنة.

وهل تفتتح الحداثة العربية مرحلة أفول أخرى. بعد أن تآكلت أقنعة الذاتية في مرحلة من مراحل التأخر العربي، وتآكلت أقنعة تقدمه المستعارة في زمن العالم الجديد...

وهل يتضمن خطاب الحداثة النقدي غياب الهوية " الذات " بمعنى ما، وإن أعلن حضورها؟

وكيف يتحول البعد الحداثي إلى قناع والانتماء إلى الهوية الغائية نوعاً من الحنين المقدر والمقدور؟

أولاً: مفاهيم الحداثة ودلالاتها:

بعد أن تغلغلت الحداثة في الحياة العامة مع ازدياد التبعية في اللباس والطعام والسلوك ، [والإشكالية في الإسلام هي إشكالية الحداثة في تناقضاتها العربية وشروط تكونها في مجتمع مختلف وهي خارج الثقافة السائدة][1].

وإزاء الهجوم الثقافي الجاري والمتوقع، وفي ضوء الضعف العربي العام، ووقوف الأمة تاريخياً في موقع المنفعل وليس الفاعل، فإننا نواجه قدراً لا مفر منه.. لنجد أنفسنا في مأزق فعلي حول مشكل التصرف في مواجهة هذا الواقع.

[فالأمم لا تقبل لدى أي اتصال – في ظروف السلم والحرب – سوى ما يتناسب مع طبيعتها القومية أو البشرية التي تعزز تكريسها لإنسانيتها. ومع ذلك فإن هذا الأمر يظل نسبياً ومحكوماً بحسب التركيبة الاجتماعية، التي تقبل في هذه المرحلة وهذه الدرجة من التطور ما كان مرفوضاً في مرحلة مبكرة][2].

والخطورة تكمن في أن ثقافة المنتصر اليوم تحمل معها أدواتها الجديدة والفعالة التي تنقصنا، وتحمل معها كل أساليب الترغيب والترهيب والإغواء.

إن الحداثة التي نسعى إليها مختلفة عن الحداثة الغربية فهناك حداثة إنسانية تسعى لاستعادة الإنسان الذي أبعدته التكنولوجيا الحديثة عن إنسانيته وجعلته مجرد آلة في أنظمتها الإنتاجية المتطورة [أما نحن فالحداثة عندنا هي تسعى إلى المستقبل بالبحث عن شرعية عقلانية ديمقراطية وثورية لتجاوز التكسر والتفاوت الحضاري والثقافي][3] .

[1] - طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، الأهالي للطباعة ، دمشق، 2003، ص80.

[2] - الأزرعي، سليمان : تحديات الفكر والثقافة العربية ، اتحاد الكتاب العرب ،دمشق، 1998 ، ص83.

[3] - طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، مرجع سبق ذكره ، ص 294.

ولما كانت الحداثة هي انسلاخ عن المسلمات والتقاليد والمعتقدات والقيم والأحكام الخرافية لترسيخ ونشر نقيض ذلك الذي هو العقل ليغدو الإنسان هو القوة الوحيدة المتحكمة في الطبيعة والمجتمع، وبالتالي اكتساب حريته وكرامته ، حيث أصبح العقل المصدر والمرجع الوحيد للفرد والفكر والقيم.

وإذا كانت الحداثة تعني التقدم كما عرفه الغرب منذ الثورة الصناعية [وهو التقدم الذي يطمح عالمنا العربي تحقيقه أو على الاقل بداية دخول مرحلته والتحديث الاقتصادي هو بالكاد التطلع العربي للانتقال إلى الوضع الذي يوجد فيه المجتمع الغربي الوضع المعتمد في مجال الإنتاج على الوسائل والأدوات التكنولوجية والأساليب الفنية الإنتاجية وفقط أساليب الكونية الخصوصية][1] .

وفي ضوء ما تقدم يختلف مفهوم الحداثة بين مفكر وآخر ومدرسة وأخرى لكن الجميع يتفق على أن الحداثة أسلوب حياة ونمط تفكير يتم من خلال تجاوز الماضي، ليس عبر القطيعة معه بل بالاستناد إليه في جمره دون رماده، والتأسيس لحاضر يكون عنواناً لمستقبل تسود فيه العقلانية في التفكير والرشادة في الحكم والديمقراطية في السياسة والمجتمع، ويرى البعض أن مفهوم الحداثة مفهوم حركي وصراعي في كنهه يتغير بتغير الأجيال، ولا يمكن أن يتصف به جيل دون آخر، أو بلد دون آخر.

فالحداثة حالة ناتجة عن تطور المجتمعات وهي تعبر بشكل أو بآخر عن روح العصر [بينما يرى آخر أن الحداثة مصطلح عسير التجديد مع أنه مرتبط بتعريفات صنعتها ظروف مناسبة غير أنها عرضة للتغيير إذ يستخدم المصطلح تاريخياً لتحديد مرحلة فنية آخذة في التلاشي فيظهر ما يعارضها مثل ما قبل الحداثة / الحداثة القديمة، الحداثة الجديدة ما بعد الحداثة][2] .

إن تغير دلالات المصطلح من مرحلة إلى أخرى يؤكد استمرارية تدفق معطيات الحداثة ، وهي بهذا أشبه بالعصارة التي تمد الشجرة بأسباب الحياة والنمو المتواصل، فإذا كانت حياة الشجرة منوطة بتلك العصارة التي تسري في كيانها هكذا الأمر مع تيار الحداثة فلا بد من تدفقه واستمراره لأنها لا تتوجه نحو مطلق ذي غاية بل تتوجه نحو مطلق لا يتضمن غاية أو نهايات واضحة. **هناك تسع مميزات لعملية الحداثة:**

1. **حداثة علمية ثورية:** تقود إلى تغيير جذري وكلي في أنماط الحياة البشرية كالانتقال من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات المتحضرة.
2. **الحداثة عملية معقدة:** لا يمكن تقليصها إلى عالم منفرد وتتطلب تغيرات في كل مناطق فكر وسلوك الإنسان وتتضمن مكوناتها على أقل تقدير التصنع، الحضرنة – الحركة الاجتماعية – التمايز...الخ
3. **الحداثة عملية منهجية:** إن التغيرات في عامل واحد مرتبطة بالتغيرات في عناصر أخرى وتؤثر فيها.
4. **الحداثة عملية عولمة:** نشأت في القرنين 15–16 في أوروبا ولكنها أصبحت الآن ظاهرة على مستوى العالم فكل المجتمعات إما حداثية أو في طريقها إلى أن تصبح حداثية.
5. **الحداثة عملية مطولة:** إن الوقت المطلوب للانتقال من التقليدية إلى الحداثة يقاس بالأجيال، قد احتاجت المجتمعات الغربية إلى عدة قرون لتصبح حديثة.

[1] - بوجنال، محمد: الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة، التنوير، بيروت ، 2010 ،ص120.

[2] -عروسي، سهيل: الحداثة من الأيديولوجيا إلى المعرفة، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2007، ص15.

6. **الحداثة عملية متدرجة في مراحل:** فالمجتمعات تبدأ بشكل واضح بالمرحلة التقليدية وتنتهي بالمرحلة الحديثة، وبين هاتين المرحلتين هناك أطوار انتقالية فرعية.

7. **الحداثة عملية تجانس:** توجد نماذج مختلفة عديدة للمجتمعات التقليدية ويرى البعض أن المجتمعات التقليدية لها أمور قليلة مشتركة فيما بينها ما عدا حاجتها للحداثة، أما المجتمعات الحديثة تشترك من جهة أخرى في أمور متشابهة أساسية إذ تنتج الحداثة توجهاً إلى خلق نقطة التقاء بين المجتمعات قد تقود الضرورات الكلية للأفكار والمؤسسات الحديثة إلى مرحلة تكون فيها المجتمعات المتنوعة متجانسة لكي تكون قادرة على تشكيل دولة عالمية.

8. **الحدثة عملية مبرمة لا يمكن عكسها:** إن مجتمعاً قد بلغ مستويات معينة من الحضارة والتعليم والتصنيع في عقد واحد لن ينحدر فعلياً إلى مستويات أدنى في العقد الذي يليه سوف تتنوع معدلات التغيير بشكل مهم من مجتمع لآخر ولكن اتجاه التغير لن يتوقف.

9. **الحداثة عملية تقدمية:** إن الجراح التي تسببها الحداثة كبيرة وعميقة إلا أنها أمراً لا بد منه، بل وأمر مرغوب به. إن تكاليف وآلام فترة الانتقال خصوصاً في المراحل المبكرة كبيرة ولكن إنجاز النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الحديث جدير بهذا.

إن الحداثة تعزز على المدى البعيد سعادة الإنسان حضارياً ومعنوياً ومادياً.

[فالحداثة هي ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة والقدرة على تحرير العقل من الثوابت المقيدة غير الحركية والبناء عليها تأسيساً لمجتمع يتحرك فيه ثالوث الإنسان – المعرفة – الطبيعة، في فضاء واسع غير مقيد ولكنه تحت سيطرة العقل وآلياته وأحكامه][1] .

فالحداثة لا تشمل نوع من الخرق للزمن والتأريخ وهي ليست مكوّن في الذات بل خروج منها، لا تستهويها الإنسانية، ولا تختبئ وراء هذا الشعار وأمثاله، إنها تسعى لمعرفة غرضية الشعار، فلكل خطاب سلطة يحاول فرضها، وتسعى كذلك الحداثة إلى الحرية.

[في ضوء تغير دلالات مفهوم الحداثة من أجل ضبط أكثر للمصطلح لا بد من التوقف على بعض المفاهيم ذات الصلة بمفهوم الحداثة. فالتحديث هو قدرة المجتمع على خلق الآليات الضرورية لتنظيم ذاته وتجاوز كل ما يعيق تحرير العقل والطبيعة والإنسان وقد ارتبط التحديث بمفهوم الثورة العلمية ونتائجها][2] .

ثانياً: التأريخ للحداثة:

الغرب الذي جاء إلى بلادنا بجيوشه وأساطيله ليعلمنا بالحديد والنار أنه لا مكان في عالمه سوى للأقوياء، الغرب، غرب الحضارة والتقدم، غرب الثورة الديمقراطية، غرب النهضة والإصلاح الديني والتنوير، غرب القيم والمناهج الحديثة والصناعة والتقانة ، أثار ردود فعل متناقضة حددت مسارات الفكر والسياسة والاقتصاد.

كان العرب في بداية نهضتهم الحديثة يأملون أن يأخذوا من الغرب: [يذهبون إليه طلباً للعلم والمعرفة والتمدن، لكنه ما لبث أن جاء هو إليهم فاتحاً مزهواً بانتصاراته وتقدمه حاملاً شعوراً بالتفوق والامتياز، مفعماً بالكبرياء، والغطرسة إزاء شعوب لا تصلح لشيء إلا أن تكون سماداً لتاريخه وموضوعاً لإرادته، شعوب ليست سوى مادة لتظهر عظمة تاريخه][3] .

---

[1] - عروسي، سهيل: الحداثة من الأيديولوجيا إلى المعرفة، المرجع السابق ، ص18.

[2] -المرجع السابق ، ص20.

[3] - جباعي، جاد الكريم : قضايا النهضة، دار علاء الدين ، دمشق، ط1، 2003، ص22.

لقد بات الغرب المتفوق الغالب في الوعي العربي نموذجاً ومعياراً ويولد شعوراً بالذل والمهانة والانكسار والظلم والقهر والاستقلال. إذ أحب العرب الغرب وكرهوه في الوقت نفسه، وذلك بقدر حبهم لذاتهم وتعلقهم بتاريخهم وتراثهم وكرههم لأوضاعهم.

[الحداثة لا ترجع إلى النصوص الدينية الإلهية التي سيطرت زمناً طويلاً، الحداثة هي ذاك النظام الشمولي المنفتح على المجهول والمبني على مركزية ذات الإنسان وحريته ومسؤوليته، وهي وفق ذلك تعتبر نظاماً لا نهاية له تتنوع أشكاله في التاريخ وفق الشروط والحاجات المادية المجتمعية][1] .

فهذه الحداثة تكمن في تحقيق مضاعفة الأرباح، والفوائد بفعل سلطة تسلطية تؤمن بالتدبير والإنتاج وفق قاعدة تراتبية الوسائط الذين ليسوا في حقيقة الأمر سوى مجموعة نصابين مستثمرة سلطتها تلك لمنع شروط ظهور نقيضها. ولا شك أن فعالية الحداثة تختلف باختلاف الزمان والمكان.

ومن الصعب الرجوع إلى فترة زمنية أو مساهمة مكانية واعتبارها المرتكز الوحيد لانطلاق الفكر الحداثي لأن هذا الفكر هو حصيلة الجهد الإنساني عبر التاريخ.

[لأن التفاوت بين البشر أمر طبيعي، ومن اقتضاء التفاوت أن يكون التضاد، ومن اقتضاء التضاد أن تكون المنازعات][2].

حيث حققت البشرية انجازات ضخمة عبر أفراد تميزوا بالصبر والمثابرة ، فالإنسان عبر امتداده الزماني والجغرافي، يساهم بهذا الجزء أو ذلك في هذه الحصيلة الحضارية.

لقد قدم الشرق: الصفر وهو أهم إنجازات الفكر الإنساني، والبوصلة والجبر والمقابلة (الخوارزمي) ومساهمات كبيرة في الفلك والرياضيات. كما قدم الغرب مثل ذلك عبر غاليلي وباسكال ولايبنتز وانشتاين ونيوتن في مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفيزيائية [وإن كان يسجل للغرب أن استطاع توظيف المنجز الإنساني أكبر من الشرق وهو ما يتجلى في عالم اليوم ولهذا أسبابه، إذ كان التأكيد دوماً على أن الخيوط الأولى نسجت في اليونان وأن شمس الحضارة تشكلت أشعتها في الأرض اليونانية][3].

لقد كان الإغريق مدركين لأهمية حضارات الشرق القديم فقد رأى هيرودوت والملقب بـ" أبو التاريخ " أن الديانة والحضارة اليونانيتين قد قدمت من مصر، وفي محاورة طيماوس لأفلاطون يقول أحد الكهان المصريين لسولون [أنتم أيها اليونان لستم إلا أطفالاً ولا شيء لديكم يحمل طابع حضاري موغلة في القدم][4].

وكان أرسطو وهو من كبار مفكري البشرية يقول: أن العلوم الرياضية قد نشأت في أرض حيث كان الكهنة يتمتعون بالفراغ الضروري للدراسة .

واذا ما تطرقنا الى اليونان لم يكن إلا محطة في الدرب مرت الحضارة العربية القديمة من بابل ومصر بوساطتها وعبر طريقها إلى أوروبا وأمريكا. فالشرق قد قدم للفكر، تعددية الآلهة حيث امتدت وانتشرت آلهة بلاد الشام إلى الرومان

---

[1] - بوجنال، محمد: الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة. التنوير بيروت،2010، ص9.

[2] - الزهراوي، عبد الرحمن: مقالات وكتب (قضايا وحوارات النهضة العربية)، تحقيق د: عبد الإله نبهان ، وزارة الثقافة دمشق، 1995، ص381.

[3] - عروسي، سهيل : الحداثة من الأيديولوجيا إلى المعرفة، مرجع سبق ذكره ، ص23.

[4] - المرجع السابق ، ص [24].

وآلهة مصر " سيرابيس " إلى اليونان. وكذلك كان لأساطير الشرق تأثير واضح في مسار الفكر الاسطوري الإغريقي مثال: تأثير أسطورة هرقل اليونانية بشخصية أورك، وأورك هذه هي من أوائل مراكز الثقافة السومرية في بلاد الرافدين إذا كان المصدر الشرقي القديم وراء المصدر اليوناني والروماني فإنه يوجد أيضاً وراء المصدر اليهودي والمسيحي.

بعد كل ذلك لماذا هذا الإصرار على اعتبار اليونان مركز الإشعاع الحضاري وتالياً الحداثي؟

والحداثة في نهاية الأمر من صنع الإنسان ولأجله بالمعنى الإنساني ولم يكتسب الإنسان وجوده الفعلي إلا مع فلاسفة اليونان الذين نقلوا الاهتمام من الطبيعة إلى الإنسان الذي أصبح يشكل المحور الأساسي الذي تدور حوله الدراسات ومنه انطلقت الحداثة.

ثالثاً: علاقة العقلنة والحداثة:

إذا شئنا تجاوز مرحلة التقليد والإتباع إلى مرحلة الابتكار والإبداع والأصالة، وجب علينا أن نعتمد الفكر الحر ، لقد كان لنا في أوج حضارتنا جولات فلسفية أصلية، فكما يستند الطفل إلى الجدران في مشيه كذلك نستند إلى ما قاله الفلاسفة الغربيون في تفكيرنا وعملنا وما أكثر ما نرقع أفكارنا بأقوال غيرنا كما نرقع دنيانا بآخرتنا.... ونحن [وإن كنا نؤمن بقدرتنا على الإنتاج المبتكر فإننا لا ننكر ما للتقليد من أثر في الإبداع. ولا سبيل إلى إيجاد فلسفة عربية متجددة إلا بمجاورة العقل المثال قديماً وحديثاً ومن شروط هذه الفلسفة أن تعبر عن منازع العقل العربي وحاجاته وأن تعمل على إصلاح المجتمع العربي الحديث حتى يصير كغيره من المجتمعات الغربية الراقية نداً ونظيراً] [1] .

إن الإيمان بقدرة العقل العربي على اكتشاف جميع الحقائق والإيمان بوحدة الحقيقة والاعتماد على العلم والتجربة والقول بحرية الاختيار كل ذلك من المبادئ الضرورية لكل فلسفة عربية متجددة.

[فلا يمكن أن نقول أن العلم وحده هو سبب نجاح الغرب، إنما يجب أن نفحص تاريخ نهضتهم فحصاً دقيقاً ونفرق بين ما هو لب وأساس وبين ما هو صورة ظاهرة وقشور زائدة لنستدل على الروح المحركة التي أخرجتهم من ظلمات الهمجية إلى عالم الحضارة الحديثة][2].

وما هي المعجزة التي أخرجت الغربيين من سوء الحالة في القرن الثامن عشر ، حيث جعلتهم ينبذون التقاليد القديمة الفاسدة ولا يعتقدون بالخرافات السخيفة، تلك المعجزة التي كانت السبب في هدم العلوم المستندة على النقل وحده والتي ساعدتهم على الارتقاء بحالتهم الاقتصادية وزيادة أموالهم حتى استطاعوا أن يبنوا المدن العظيمة ويشيدوا المعامل الجسيمة و ينشروا العلم، ويرفعوا مقام الأدب، فزادت قوتهم المادية والأدبية، واتسعت شوكتهم فاقتسموا العالم؟

[كل هذا لأنهم بدأوا لا يطيعون إلا العقل الذي انتهى بهم إلى الإفراط في تعظيمه إلى أن أقاموا له تمثالاً يعبدونه، فالعقل وحده كان الحاكم في كل شيء][3].

وقد لعبت وسائل الاعلام الغربية دورا كبيرا في استهداف ثقافتنا الحضارية التي منها انبثقت حضارتها عبر أجهزة الاتصالات الحديثة لتحل محلها ثقافة الاستهلاك والاغتراب والضياع التي حددت أفكارها وقيمها ومعاييرها الشركات متعددة الجنسيات والمؤسسات الثقافية التي تعمل تحت رعاية وإشراف وتوجيه الدول المتقدم. [وجب أن تكون الحداثة

[1] - طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، مرجع سبق زكره ، ص 302-304.

[2]- عياد، كامل : مقالات مختارة (قضايا وحوارات النهضة العربية)، تقديم: محمد كامل الخطيب، القسم الأول ، وزارة الثقافة، دمشق، 1994، ص300.

[3] - المرجع السابق ،ص 301.

العربية هي العقلانية وهي الثورة، وليست فعلاً سياسياً وحسب بل هي فعالية معرفية وممارسة نظرية في حقل أيديولوجيات متعارضة ومتصارعة وقوى اجتماعية وطبقات سياسية داخلية وخارجية عربية وإقليمية ودولية، ذات استراتيجيات متداخلة وهذه الفعالية تتضمن وعياً إشكالياً للذات في أشكال فكرية تحتوي بالضرورة على وعي موضوعي][1].

وقد لعبت العقلنة الدور الأساسي في الحداثة والتحديث، وتمثل الأساس لتكوين فكر سياسي، اجتماعي، عقلاني، والنضال ضد التفاوت ، وإعلاء شأن الذات مقابل الأنا الاجتماعي.

ويعتبر العقل أكبر فعالية إنسانية عبر التاريخ وقد كان دائماً محور الكينونة الإنسانية وعنوان قوتها، وقد ارتبطت فكرة الحداثة بالعقلنة ارتباطاً وثيقاً بحيث أن التخلي عن أحدهما هو بمثابة إلغاء للآخر [إذ تتحدد بنية مفهوم العقل الحداثي في ثلاثة مكونات أساسية معروفة: الحرية والموضوعية والعمومية، وعلى هذه المبادئ الثلاث الكبرى تأسس نظام العقل الحداثي الذي أفرز مؤسسات حداثية كالصناعة، والتكنولوجيا....، فهذا العقل هو الذي أسس للحريات بأنواعها المختلفة وجعل العالمية والعمومية أفقاً للمجتمعات البشرية][2].

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا في هذا الموضع:

لماذا لم يتجه التطور العلمي والفني والسياسي والاقتصادي إلا في أوروبا على دروب التعقيل الخاص بالغرب؟

إن وجود صلة بين الحداثة وما كان يسمى العقلانية الغربية كان ولا يزال أمراً مفروغاً منه، حيث أن تفكك التصورات الدينية للعالم تفككاً أوجد في أوروبا ثقافة لا دينية هو عملية عقلانية.

[إن نظرية التحديث بالنسبة لمفهوم الحداثة تعمد إلى تجريد مثقل بالنتائج فهي تفصل الحداثة عن أصولها، وتعرضها بمثابة نموذج عام لسيرورات التطور الاجتماعي، نموذج حيادي يهمل الإطار المكاني / الزماني الذي يطلق فيه وأكثر من ذلك تقطع الصلة الداخلية التي تصل بين الحداثة والاستمرار التاريخي للعقلانية الغربية على نحو يصير فيه من الممتنع فهم عمليات التحديث بصفتها عمليات تعقيل أي بوصفها التاريخ الموضوعي للبنى العقلانية][3].

وقد تجسدت العقلنة في النهضة الأوروبية مع عقلنة القول والفعل بـ:

1. **عقلنة الفكر العلمي:** وقد بدأ مع الثورة الأبستمولوجية للعصر الكلاسيكي مع غاليلي وديكارت ولايبنتز ونيوتن هذه الثورة التي فصلت العلم عن الأيديولوجيات وأسست الرياضيات نموذجاً للعلم.
2. **عقلنة القول التأريخي:** من خلال إرادة المعرفة والهيمنة وقد تحدد عصر النهضة الأوروبي بإعادة قراءة التاريخ العالمي من خلال وضع الوعي العربي وعياً مؤسساً وذلك بالعودة إلى الحضارة اليونانية كنقطة انطلاق لبناء العقل وكناية قصوى وذلك بالنداء إلى وحدة العالم الغربي.
3. **عقلنة القول السياسي:** من خلال ضبط مجموعة من القيم والنواميس التي تربط الرئيس بالمرؤوس وتعطي أساساً للواجبات وللحقوق.
4. **عقلنة القول الديني:** بإحداث تقنيات عصرية لقراءة النصوص الدينية واقتحام كل المجالات بما فيها المحرمات للمعرفة والبحث والاتعاظ.

[1] - طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، مرجع سبق ذكره ، 296.

[2] - بوجنال، محمد : الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة، مرجع سبق ذكره ، 44.

[3] - عروسي، سهيل :الحداثة من الأيديولوجيا إلى المعرفة، مرجع سبق ذكره ، ص33.

[فالحداثة تنتصر عندما يتعرف الإنسان على الطبيعة بدلاً من أن يكون في الطبيعة][1] .

رابعاً: ثقافة التغيير وتحقيق الذات :

في هذه الفقرة نتطرق الى علاقة الحداثة والمعرفة ، فاذا تميزت الايديولوجيا بأنها عبارة عن منظومة أفكار مرتبطة اجتماعيا بمجموعة اقتصادية وسياسية وفكرية ،معبرة عن المصالح الواعية لهذه المجموعة ، أو تلك ، على شكل مقاومة للتغيير ، ومفككة للبنات الكلية . وتكمن قدرة الايديولوجيا بالإحاطة بالحقائق الاجتماعية وصياغتها بطريقة جيدة ، حيث تتم دراسة الايديولوجيا لمعرفة مدى عكسها للواقع وهذا يتطلب دراسة البدائل التاريخية المتاحة والنظر للايديولوجيا دراسة الشكل الخاص للعلاقة بين البناء الفوقي والبناء التحتي ، وهي علاقة جدلية فكلا البنائين الفوقي والتحتي يكتسب هويته المتعينة من خلال الآخر الا أن البناء التحتي ليس موجود ماديا وحضاريا وفكريا.

(قد لايكون الاختبار السياسي وحده عاملا في توحيد الوعي داخل المؤسسة القديمة أو الجديدة ، مادام يعكس تأخر البنى والعلاقات والقوى)[2].

تميزت الحداثة بتطوير مستويات جديدة في المعرفة وذلك بالانتقال التدريجي من المعرفة التأملية التقليدية التي تتصف بأنها معرفة كيفية ، الى المعرفة التقنية التي تقوم على اعمال العقل المعتمد على الملاحظة والتجريب والتكميم .فالمعرفة الحداثية معرفة علمية أي تقنية يخدم التقنية ، غايتها السيطرة الداخلية والخارجية ، على الانسان وعلى الطبيعة .

(الحداثة عملية متدرجة في مراحل : فالمجتمعات تبدأ بشكل واضح بالمرحلة التقليدية ، وتنتهي بالمرحلة الحديثة وبين هاتين المرحلتين هناك أطوارا مرعبة وكل المجتمعات بشكل أساسي تنتقل من خلال المراحل نفسها)[3].

من هنا نلاحظ أن عقل الحداثة هو عقل أداتي والمعرفة الحداثية معرفة تقنية ، فهي اضفاء الطابع التقني على العلم وعلى العلوم الانسانية والاجتماعية ، اي اضفاء الطابع التقني على الثقافة ككل.

ليصبح العالم التقني ثقافة تحل محل الثقافة التقليدية وتكيفها بالتدريج، مؤطرة المجتمع العصري .فتزوده بمشاعر الهوية والانتماء والأخلاق .

(الحداثة تشمل على نوع من الخرق للزمن والتاريخ)[4] ، هنا نلاحظ بأن الحداثة تتميز بأنها تجول جذري وعميق على كافة مستويات المعرفة سواء في فهم الانسان وطبيعته ، وفي تصور الطبيعة وفي التاريخ فهي بنية فكرية كلية ، وهذه البنية عندما نلاحظ بنية اجتماعية تقليدية فإنها تحاول تفكيكها ورفع القدسية عنها،ومن هنا نلاحظ بأن

الثورة الثقافية تقوم بتفعيل دور الفكر في الحياة العامة من خلال وحدة الذات والموضوع، حيث لم يعد ممكناً إيجاد الحلول لإشكالية الثقافة القديمة ولا للأزمة الفكرية السائدة في عصر العولمة وهيمنة الثقافة العالمية والتقنية التي تهدد السيادة، والهوية، والقومية العربية، ووحدة الأمة.

---

[1] المرجع السابق ، ص 36.

[2] خضر ، مصطفى، الحداثة كسؤال هوية ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ط1، 1996،ص72.

[3] عروسي ، سهيل الحداثة من الايديولوجيا الى المعرفة،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2007، ص17

[4] عروسي، سهيل ، الحداثة من الايديولوجيا الى المعرفة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق . 2007. ص19.

حيث أن ثقافة الأزمة بقدر ما هي تعبير موضوعي عن حالة الوعي الاجتماعي والانشقاقات في بنية الثقافة القديمة وهي كذلك مقدمة للخروج من المعضلات والمشكلات الراهنة وهي مرحلة تحديد للأوضاع الأكثر مطابقة لحركة التاريخ [وبقدر ما يسود فيها من يأس وإحباط ومن انهيارات فإن ما هو جوهري يحتوي على جذور الانعطافات النهضوية والثورية] [1].

[ولما كانت الهوية مرتبطة بحياة الأمة وهي تتطور مع التطور السياسي والاجتماعي فالهوية القومية التي تحمل سمات التجربة التاريخية تحمل سمات الواقعية والراهنية هي كذلك تنمو نمواً تاريخياً، فتغتني وتتسع وتتجذر وتتحول، وتتصارع داخلياً وخارجياً وتتفاعل مع الشعوب والثقافات وتنغلق أحياناً بسبب هجوم أو ضعف، وتنفتح حيناً بسبب قوة أو ضعف. وهي لا تتوقف أبداً عن هذه العملية، كالشجرة التي تتغذى من الأرض ومن الهواء][2]

وبين التغير وإرادة التغيير بين الثقافة والحداثة يظل الفكر العربي في حالة من عدم التوازن، وثمة إشكاليات في جدلية الموروث، والوافد، وتجلى حيوية الثقافة في تمثل الوافد وإدخاله في منظومة فكرية مرنة واتباع البحث والاهتمام به في عملية تغيير من الوسائل كي لا يكون دخولنا في العصر أعزل ، ولما كان التغيير في الحياة العربية مستوردا للاستهلاك ، لم يتفاعل مع خصوصية الأمة الثقافية ولم يستطع إثر ذلك المظهر العام لهذه الثقافة العربية بسبب عدم قدرته على التكيف مع تغيرات العالم، لم يستطع مقاومة التأثر فيما يحدث حولنا وبقي منفعلاً وليس فاعلاً.

إذ أن التغيير يسلك طريقه عبر الكفاح المنهجي والمتواصل ضد التعصب للمفاهيم الجديدة، ويتم إنتاج الثقافة باستمرار نتيجة التغيرات على المستوى الكوني، ولكن هذا لا يعني تجاوزاً للذات ولمفهوم الهوية، فلا انفصال للذات والهوية عن التاريخ، ولا بد من وجود ثوابت يكون الأمر فيها تغييرا في الكينونة، والثقافة القادرة على حفظ التوازن في الشخصية القومية هي تلك التي تكون ثقافة تغيير. ومن خصائص ثقافة التغيير:

1. وعي الخصوصية الثقافية القومية لأنها المعبرة عن ذات الأمة. إذ أن ثقافة التغيير تحتاج إلى إرادة من خلال عملية مسح شاملة لمختلف جوانب الحياة وأنماط السلوك، وتصنيف المعلومات الناتجة، وتحليلها، وفحصها باعتماد أساليب وأدوات علمية عصرية بعيداً عن التعصب للدارج والمستقر.
2. الاتصال بالثقافات السائدة، على مستوى العالم، ولكن [الانفتاح على الآخر لا يعني الذوبان في مشروعاته وإنما العمل على تصفية ما يناسب مشاريعنا التنموية وإعادة إنتاجه. فالحضارة جهد بشري متنامي وإنتاج متراكم عبر تاريخ الإنسان][3].
3. دمج العلم دمجاً موضوعياً في الثقافة القادرة على التغيير.
4. التكيف الإبداعي: هو خيار الثقافة الوحيد والممكن ليتمكن الإنسان من التكيف مع التغيير المتعدد الجوانب.

ولما كانت العقلانية وتحقيق الذات هما شرطا الحداثة، وجب الحديث عن الذات، حيث تتضمن لفظة الذاتية نقطتين:

1. **الفردية الإيجابية الفاعلة:** والتي يتم فيها توظيف إمكانيات الفرد في خدمة المجتمع وهو ما ينبغي أن يكون.

[1] - طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، مرجع سبق ذكره ، ص 295.

[2] - عروسي، سهيل : دراسة في إشكالية الثنائيات في الثقافة العربية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2003، ص37.

[3] - الملحم، اسماعيل: جدل الثقافة والسياسة في الفكر السياسي "الفكر العربي". اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2012،ص82.

2. **الفردية السلبية العدوانية:** وهي توظيف إمكانيات الفرد في خدمة الذات حصراً في مقدمتها ونتيجتها، وهو ما لا ينبغي أن يكون.

إذ يجب على الحداثة اعتماد الفردية الإيجابية الفاعلة: لتوظيف كل الإمكانيات الجيدة لخدمة المجتمع.

ويقتضي الأمر النظر إلى تعلم الإبداع وتكوين الشخصية، والحفاظ على الذات المنتجة، على أنها أهم عناصر النجاح والانطلاق نحو بناء ثقافة التغيير، التي تكون من خلال استراتيجية عربية موحدة تصنعها الجماهير بإرادتها وبوساطة تنظيماتها الذاتية، [وهذا المشروع التغييري بحاجة اليوم أكثر من أية مرحلة أخرى إلى النمو في أجواء من الحرية والديمقراطية وتحقيق الذات، وإلى عمل جماهيري جاد تصنعه الأمة عبر الممارسات الدائبة لرفع كل وصاية عليها، بإتاحة فرص من الحرية والعمل الجاد المحصن بالرقابة الديمقراطية][1] .

وهذه الاستراتيجية ينبغي لها أن تقوم على الإبداع وتنمية الفعل المبدع، بتطوير وسائل البحث والاستفادة من مستجدات العصر لتحقيق الذات والمحافظة عليها أمام كل دخيل.

[إذ تستمر معاناة البحث عن معنى التغيير والهوية والمصير كجزء من مشروع ثقافي ينقطع عن ذاته، ويتواصل مع الآخر. يتصل بذاته ويجابه الآخر][2] .

الخاتمة:

لما كانت في البداية أهداف الحداثة أنسنة الدين وجعله في خدمة الإنسان وجب أن تبنى الحداثة على مفهوم العقل " أعدل قسمة بين الناس " بتعبير ديكارت إذ تمثل الحداثة شيء براق لامع يشد الناظر إليه، وعلى أساس الإحساس بالجمال والكفاح من أجل سيادة تتبنى الأخوة الإنسانية التي تحتفل بالطبيعة، [فإن تحققّ قيمة الأخوة تلك فتضبط قوانين الطبيعة، أي عدم تأثرنا بالمحيط إلا بما يخدم مصلحتنا ويحقق تقدمنا، وترتقي بذاتها " الأخوة " إلى ما يسعدها في الأرض وهي في هذا تحاول أن تستجيب لحلم قديم لعله الماضي المفيد، ماضي حلم في تصور الحداثة المحققة للذات والكفيلة بتقديم كل جديد مفيد للإنسانية قيد التحقيق التدريجي فما يؤاخي بين الإنسان هو ميله الفطري والقوي إلى ما هو فاتن، سكونه بالجمال والسحر المطلق هو ما يقرّب بين الثقافات][3].

وعلى الحداثة أن تحقق الانتصار لكشف قوانين الطبيعة التي توجد بين بني الإنسان لتوحد الإنسان نفسه بالعالم الذي يعيش فيه مقاوماً، واعياً، يحثه على اكتشاف كل جديد ومميز ، فيعمل على الخلق والابتكار، سلاحه في ذلك الفكر الحر.

إن خطاب الحداثة هذا الخطاب النهضوي – العقلاني – الديمقراطي – الليبرالي الذي رفع لواء المثاقفة مع الغرب المتقدم ولواء العلم والفلسفة، ونادى بفصل الدين عن الدولة وتحرير المرأة وإعطائها حقوقها، وعمل من أجل الإصلاح السياسي والتعليمي والتربوي وتحرير البلاد وتأسيس الدولة القومية، ارتسم في الممارسة وكأنه من تدبير وتخطيط القوى المعادية للإسلام والعروبة التي ما فتئت تشجعه من جهة وتتآمر عليه وتثير الشكوك من حوله وتعمل بوسائلها الخاصة، لاحتوائه من جهة أخرى.

---

[1] المرجع السابق ، ص96.

[2] - خضر، مصطفى. الحداثة كسؤال هوية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق. ط1،1996،ص212.

[3] عبد الرحمن، طه. روح الحداثة، المركز الثقافي العربي ،دمشق. ط1، 2006،ص116.

وفي نفس الوقت تدفع بالخطاب التقليدي لجعله أكثر ملاءمة وأقل عداوة لاحتواء المؤسسات التقليدية. وجعل خطابها السياسي، والثقافي أكثر حدة في معاداة النهضة والإصلاح.

فقد تغلغلت الحداثة في كل مناحي النشاط الثقافي العربي ليتغير وبشكل عميق التفكير والسلوك ونمط الحياة. إذ خرج خطاب الحداثة إذاً من رحم الثورة المجهضة وعانى ما عانته من انكسارات وإحباطات في الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية من أجل التحرر الوطني.

المصادر والمراجع:

1- الأزرعي، سليمان : تحديات الفكر والثقافة العربية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 1998.

2- بوجنال، محمد: الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة، التنوير، بيروت ، 2010 .

3- جباعي، جاد الكريم : قضايا النهضة، دار علاء الدين ، دمشق، ط1، 2003.

4- خضر، مصطفى. الحداثة كسؤال هوية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط1 ، 1996 .

5- الزهراوي، عبد الرحمن: مقالات وكتب (قضايا وحوارات النهضة العربية)،تحقيق د: عبد الإله نبهان ، وزارة الثقافة دمشق، 1995.

6- طالب، محمد سعيد : الحداثة العربية مواقف وأفكار، الأهالي للطباعة ، دمشق، 2003.

7- عباد، كامل : مقالات مختارة، تقديم: محمد كامل الخطيب ، وزارة الثقافة ، دمشق،1994.

8- عبد الرحمن، طه. روح الحداثة، المركز الثقافي العربي ،دمشق. ط1، 2006.

9- عروسي، سهيل : دراسة في إشكالية الثنائيات في الثقافة العربية، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2003.

10- عروسي، سهيل: الحداثة من الأيديولوجيا إلى المعرفة، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2007.

11- عياد، كامل : مقالات مختارة (قضايا وحوارات النهضة العربية)، تقديم: محمد كامل الخطيب، القسم الأول ، وزارة الثقافة ، دمشق، 1994.

12- الملحم، اسماعيل: جدل الثقافة والسياسة في الفكر السياسي "الفكر العربي". اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2012.